شرف . . . !

مشى العمدة فى جلبابه النظيف المهندم وعلى رأسه طربوشه الطويل الأقتم ، وفى يده عصاه الغليظة المحلاة بالذهب ، ومن خلفه بعض وجوه القرية وبعض خفرائها ، وإنه ليحرص أبداً أن يسير ومن ورائه عدد من الناس ليوقع الرهبة فى نفوس من يمر بهم من أهل قريته ، وما يلمح أحد من أهل القرية هذه « الزفة » إلا نهض محيياً بتكاف أكثر مايستطيع من التأدب والخشوع ، فإن كان من ذوى المكانة جرؤ على أن يضيف إلى عبارات تحيته : « تفضل يا حضرة العمدة ... شرفنا يا سعادة البك » وقنع من حضرة العمدة رداً على تحيته وعلى دعوته بإشارة خفيفة من يده علامة على الرضاء لا تكاد ترى ، أو بتمتمة خافتة على شفتيه لا تكاد تسمع ؛ وإن كان من عامة الناس فما يستطيع إلا أن ينهض خاشعاً إذا أبصر العمدة من بعد ، ثم يظل فى خشوعه لا يلتفت يمنة ولا يسرة ولا يرفع رأسه حتى يمر به العمدة فيرفع يده إلى رأسه فى ضراعة ، ويرد فى اهتمام تلحظه فى نغمته تحية الإسلام التى قد يلقيها إليه أحد من فى ساقة هذا الركب ، ثم يجلس بعد أن يمر به الركب كله ، وفى خياله شارب العمدة وعبوس وجهه وطربوشه الأقتم الطويل وعصاه الذهبية الغليظة ، وحسبه جرأة أنه استطاع أن ينظر إلى ذلك الشارب المهيب ، وإن كان ذلك بعد أن يمر به العمدة أو يكاد فيلمح طرفى شاربيه وهو ينظر إليه من وراء ظهره ...

لم يبق على أذان المغرب إلا ساعة أو بعضها ، ويرى الناس وكأنهم سكارى مما فعل بأبدانهم وأرواحهم الحر والصيام وامتداد النهار وشدة الغلاء ، وطول انقطاع ماء الرى حتى هلكت الذرة الوليدة أو كادت ، وتفتحت بعض لوزات القطن المحترق قبل أوانها ووقفت سوقه فلا تنمو

ووقف العمدة وركبه عند أول السكة الزراعية فى مفرق

التى دفعتنى إلى تأليفها .

وقد سألتنى بعض المجلات كيف أؤلف مكتبة الأطفال ، وكيف أتدرج فيها من السهل إلى الصعب فقلت لسائلى : إن إحساس الطفولة عندى كامن مذخور ، فأنا أستحضره فى كل لحظة ، ولدى من رسائل الاختبار والتطبيق لكل ما أكتبه فى هذه الناحية أولادى وهم ذوو أسنان مختلفة وقد استطعت بفضلهم على توالى السنين أن أتدرج فى هذه القصص من السنة الأولى الابتدائية إلى السنة الرابعة الثانوية .

وقد كنت أروى القصة للصغير منهم — حين أؤلف لصغار الأطفال — فإذا انتهيت من روايتها سألته أن يقصها علىّ ، ثم دونت ما علق بذهنه منها واسترعى انتباهه من حوادثها . فاثبته وأغفلت منها ما أغفله . ثم سألته أن يقرأها أمامى بعد كتابتها ، لا تبين مدى ما ظفرت به من نجاح أو إخفاق . فإذا سألنى عن معنى كلمة مما يدق عليه فهمه فسرتها له . فإذا صعب عليه التفسير ، استبدلت به كلمة أخرى أسهل وأيسر ، ثم أثبت التفسير الأخير الذى استقر فهمه عليه .

هذا هو المنهج الذى أخذت به نفسى فى تأليف مكتبة الأطفال فإن وفقت فى هذه الخطوة — وأرجو أن أكون — فقد أديت بعض ما يجب أداؤه لهذا الجيل الناشئ الذى نعلق عليه أكبر الآمال .

ولا أكتم أنى طالما عجبت فى مستهل نشأتى كيف تنكبت كتب المطالعة العربية سبيل الكتب الأجنبية التى وفق الكثيرون من مؤلفيها إلى تحبيب نفسهم إلى نفوس الأطفال بقدر ما وفق مؤلفونا إلى تبغيض القراءة العربية إلى نفوس الناشئة .

وطالما شكوت لبعض أترابى من الطلبة ونحن بالسنة الأولى الابتدائية متبرماً بما فى أيدينا من كتب المطالعة العربية مقابلا بينها وبين الكتب الأجنبية الجذابة الفاتنة . وطالما أجابنى صاحبى مستهزئاً ساخراً : « وما بالك لا تؤلف خيراً من هذه الكتب؟ » وطالما أجبته واثقاً : ذلك عهد على أوفى به إن شاء الله متى كبرت سنى ، وبلغت مبلغ الرجال »

ولعلى بما ألفت من أجزاء مكتبة الأطفال — خلال هذه السنين العشرين ، قد وفيت بهذا النذر ، وحققت منه بعض ما أريد .

كامل كيلانى

١٦ - ٢٩

الطرق بين قريته وقريتنا وبعض القرى المجاورة ، وهو مكان به عدد من الدكاكين وكثير من الناس ، وما أن وقع بصره على رجل من أهل قريته حتى ناداه فى عنف ، فخف المسكين إليه وهو يتمتم فى صوت سمعه بعض الناس : « يا نهار اسود ... ياخرابى » ويحاول أن يبلع ما أبقى الصيام والقيظ فى فمه من ريق فلا يجد شيئاً ، ووقف المسكين بين يدى حضرة العمدة ، فهل رأيت العصفور الهزيل بين يدى صقر جارح ؟ وراح العمدة ينهره فى صوت كالرعد أكبر ظنى أن المسكين لم يسمعه من فرط رعبه .. يا كيت وكيت وياين كيت وكيت ... من هاتيك الألفاظ التى تجرى بها ألسنة العمد وأصحاب السلطان فى القرى ، وأمسك العمدة هذا المسكين بإحدى يديه وصفعه بالأخرى مرتين على وجهه المصفار فى عنف وغلظة ، فما تركه حتى سقط المسكين على الأرض يعفره التراب ، فركله العمدة كما يفعل بكلب حقير !

ولم أدر سبباً لهذا الضرب ، غير أنى أحسست بالدم يصعد حاراً قوياً إلى وجهى ، وطاف برأسى فى مثل لمحة الطرف طائف مما نلوكه نحن المتعلمين من ألفاظ الحرية والديمقراطية والدستور ومجلس الأمن وأضرابها مما نخادع به أنفسنا ، وهممت أن أنقض على هذا الصقر ، وأبعثها حرباً بين الأسرتين والقريتين حتى ولو كان المضروب من أكبر المجرمين ؛ وما كدت أسمع ممن حولى أنه من المساكين المسالين ، حتى انتفضت انتفاضة المحموم ، وخطوت أوقد نار الحرب علّى أطفىء بها نار غضبى !

ونهض المسكين يبكى ويئن ويضع يديه على وجهه مكرراً قوله : « أمرى إلى الله ... أمرى إلى الله » ! وكأنما عز هذا على أحد حاشية العمدة فنهره قائلا : « إخرس يا حمار . . بوس يد العمدة وقل له ضربك شرف ياسعادة البك ، وبذاك يصفح عنك »

وسبقنى إلى حيث يقف العمدة وحاشيته شاب يابس جلبابا أبيض ، ويضع طربوشاً فوق رأسه ، علمت أنه أخو المضروب ، فالتفت إلى ذلك المتكلم الأخير قائلا : « بل اخرس أنت ياساقل » ومرق مروق السهم إلى العمدة ، فوقف يعترض طريقه فى جرأة قائلا : « لما ذا تضرب أخى يا حضرة العمدة ؟ » ... وأخذت العمدة أول الأمر ربكة من هذه الجرأة التى لم ير مثلها قط فى سنوات حكمه الثلاثين ، ولكنه نظر إلى هذا الطربش فى استهزاء كما ينظر المرء إلى مجنون لا يحاسب على قوله أو فعله ؛ ولكن هذا الطربش أخذ يقول فى عبارة فصيحة : « ما هذا الجبروت ؟ إلام الظلم ؟ الناس سواسية كأسنان المشط ... نحن فى عهد الدستور ... قضية الحرية تعرض على مجلس الأمن . . يا ناس كفى ظلماً واستعباداً لخلق الله ... فيم هذا الضرب وهذا الجبروت » ! !

وتقدم المضروب بدوره ، فازداد الناس عجباً إذ سمعوه يتوثب أمام العمدة قائلا : « إيه الجبروت ده ... دا ظلم ... داجبروت ! » ودفعهما أعوان العمدة من طريقه ، ومضى العمدة وهو يلعن الدستور والحرية ، ويسخر فى صوت مسموع من هذه البدع التى أفسدت الناس ، ويكظم غيظه من هذا المعلم الإزامى الثائر الذى غضب لضرب أخيه ، والذى يفسد هو ونظراؤه القرى !

واستمر المعلم الجرىء النبيل يرفع صوته متحدياً معلناً أنه سيرفع إلى النيابة شكواه واستشهد بى وبغيرى ، فقبلت أن أشهد مغتبطاً ، وأنا أقول لنفسى : هؤلاء هم الذين يصلحون القرى لا الذين يفسدونها ، وما يفسدها إلا أمثال هذا المتجبر الطاغية الذى يعيش بجهله وجاهه فى القرن الماضى .. ومضيت إلى دارى قرير النفس - وقد ذهب عنى الغضب — وأنا أقول : لن يكون لمصر دستور بالمعنى الصحيح ، حتى يتعلم أبناؤها ، ولن تقوم الديمقراطية الحق إلا على أساس من العلم !

أما الذين رفضوا أن يؤدوا الشهادة ، فقد انقلبوا إلى دورهم وهم يفكرون فيما سوف يحل بهذا المعلم الإزامى من نكال أقله تفليع زرعه أو حرقه ، وإهلاك ماشيته بالسم ، ومطاردة أهله وذوى قرباه ، إلا أن تعصمهم من عذاب هذا الطاغية رحمة من الله ! !

(الشهداء) الخفيف

اطلب نسختك

من الطبعة الجديدة من كتاب

تاريخ الأدب العربى